

عِنْدَمَا يَنْفَصِمُ الْمُجْتَمَعُ! لِمَنْ تَتَجَمَّلِينَ هِيَفَاءُ؟

إن أنسى، فلا أنسى يوماً تجلّى القُبْحُ فيه وانتشى. واحتجبَ الحياءُ حياءً من فعلنا وانتحي. أبيضُ فعلٍ وأسودُ فعيلةٍ تقاسما ساحةَ الإدراكِ، فاعترشَ البياضُ مصعدَ فضيلةٍ وافترشَ السّوادُ قعرَ دنيةٍ. هو الفُصامُ حلٌّ ثقيلاً في ديارنا. فامتقعَ وجهُ المنطقِ فينا، وانتحبَ. فلا أوجعُ منك داءً، هذيانَ النَّفسِ! ولا أقبحُ من فعالك فينا، ولا أصعبُ.

هذه صورةٌ من واقعنا، وتلك أختٌ لها. تقاسمتا المكانَ وتنازعتا الزّمانَ، فعمّقَ الحسنُ قبحَ الضّدِّ وأوجعَ. ومزّقَ الضّوءُ سترَ اللَّيْلِ وأقشعَ. فتأنفَ الفعلُ الجميلُ سموّاً وارتفعَ، وغارَ القبيحُ في حمأةِ العارِ وانتقعَ.

في رُكنه استوى شاخصاً نظره المدى، يُناظرُ أخوين له تقدّماه سنقاً في ميدانِ الشّرفِ والُعلا. هما الشّهيدان، وهو جريحُ الوطن. كانَ عليّ في ساحاتِ الوعى مُقاتلاً غيرَ هيّاب. اقتحمَ أتونَ الموتِ، لا يابهُ بجسيم حساب. ناداهُ الوطنُ يالْمُ، فأبى إلا أن يكونَ كُرمي عينيهِ الجواب. لم يقعهُ خلُوُ البيتِ من رجالِ قضاوا، ولم يثنيه عن الفعلِ المرومِ توسّلُ أمه التّكلى. هو عزمٌ على المضيّ قدماً لحقاً بشقيقه. فهما على معارجِ الشّرفِ والشّهادةِ تقدّماه، وهو على الأثرِ لا تضلُّ أبداً قدماه. أُصيبَ عليّ فأخطأته الشّهادةُ هذه المرّة، لكن لم يُخطئه الشّرفُ الرّفيعُ ولم تحرمهُ مكرمةُ العُلا.

وفي ركنها اصطنعتُ هيفاءً، تُعاتبُ الزّمانَ مَضَى بها سريعاً، فمضَى. تُمني النَّفسَ بنضرةِ الشّبابِ تعودُ إلى مُحيّاتها. تحلمُ بالدّهشةِ والرّغبةِ حينَ مَلَقَها. هي سيّدةٌ في منتصفِ العمرِ، أبت أن تُصالحَ الزّمانَ فيُعْنيها. فالتمستِ الجراحةَ، فعسى مبضعُ الجراحِ على ما أحببتُ يُجلبّيها.

كنتُ عاملاً على جراحِ عليّ في غرفةِ العمليّاتِ الأولى. وفي الغرفةِ الثّانيةِ، في الجوارِ المُباشرِ لنا تماماً، كان هناك من يعملُ على أحلامِ هيفاء. استنشقتُ عليّ أبخرةَ المُخدّرِ، وهيفاءُ حظيتُ بنصيبها منه هي الأخرى. قنعَ عليّ بحظّه من المُخدّرِ فهجرَ الوعى والألمَ، وكذا فعلتُ هيفاءُ. ثم مرّ زمنٌ طويلٌ، والاثنتان في غيبوبةٍ دائيّةٍ لزومِ العملِ الجراحيِّ ومقتضياتِهِ.

تقاسما، عليّ وهيفاءُ، ما بقي في خزائننا من غازاتٍ تخديرٍ ومن أدويةٍ. فهذا زمانٌ عزّ فيه المُخدّرُ، وقلّ. الحصارُ مُطبّقٌ على البلادِ منذُ زمنٍ، والعوزُ والقلّةُ في كلّ شيءٍ واقعاً مريراً قد حلّ. لا تجارةٌ ولا مُتاجرٍ، والكُلُّ في كسادٍ مبيّن. حُرّمَ علينا الرّادُ كما الدّواءُ. أصبحنا في حالةٍ طوارئٍ طبيّةٍ طويلةٍ الأمدِ. والحرصُ على ما تبقى من دواءٍ مُخدّرٍ وجبَ ضرورةً كما وقراراً حكومياً.

ومع ذلك، أبت الجميلةُ إلا أن تقاسمَ عليّاً المُخدّرَ. الجرحى آلافٌ مؤلّفةٌ. المشافي تضجُّ بعديدهم الذي ما انفكّ يتعاطمُ، وهيفاءُ تأتي إلا أن تصغيَ إلى نداءاتِ نفسها المُنفصلةِ. الكلُّ في همٍّ بقاءٍ أم كرامةٍ وجودٍ، والحسناؤُ في شغلٍ مُنصرفٍ تُصارغُ الزّمانَ وفعله الشّريرَ في بشرةٍ وجوها. حجزتُ لنفسها سريراً مُزركشاً وطاولّةً عمليّاتٍ، وآلافُ المصيبةِ ما لبثوا على الوعدِ يُستمهلون. امتلكتِ المالَ ومنطقها الخاصَّ، فابتاعتُ لنفسها أملاً زائفاً بشبابٍ لن يعودَ أبداً. اشترتُ لنفسها، ومن خاصٍّ مالها، الوهمَ وملامةَ الزّمانِ ودَمْدمةَ عُقاله.

هي الواقعةُ كما وصفتها لكم على حرفٍ. لم أعملَ فيها خيالاً أم زبرجئةً. عليّ جريحُ وطنٍ من لحمٍ ودمٍ، معلومُ النَّسبِ ومحلُّ الإقامةِ لمن أرادَ منكمُ التّنبُّتَ. فدُمهُ الزّكيُّ مازالَ ندياً يخضبُ ترابَ الوطنِ كما الرّدهاتِ الموصلةُ إلى غرفةِ العمليّاتِ. وها هي أمُّه العجوزُ المُحتسبةُ حيّةً ما تزال. ما انقطعتُ تتسلّقُ الدّربَ الصّاعدةَ إلى مقبرةِ القريةِ عند كلِّ صباحٍ. لا تغادرُ ضريحَ ولديها الشّهيدينِ إلا قليلاً. تزرعُ حولهما الرّيحانَ، ترويه بدمعِ العينِ ونزفِ الرّوحِ.

وهيفاءُ كذلك، اسمٌ منسوبٌ لامرأةٍ حقيقيّةٍ ذاتِ حضورٍ وبهاء. يشهدُ على مرورها نفيشُ عطرها يعبقُ في المكانِ ما يزال. عبتُ معها الزّمانَ لطيفاً، فأرختُ لها جلدأ وحزّاً. لم تطبُ خاطرأ بفعلِ الزّمانِ، فأرادتُ قهرهَ ومحوُ الأثرِ. لجأتُ إلى جراحةِ التّجميلِ في الزّمنِ الصّعبِ لمّا ضاقَ السّبيُّ وحاقتِ الخطرُ. ولحظّها العاثرُ، حدثٌ أن نازعتني المكانَ والزّمانَ وأدويةَ التّخديرِ. فمقتنتها نفسي، واحتقنَ بسوءِ فعلتها قلبي وضجّ.. فغلّبتني.

لا أعيبُ عليك هوسَ الجمالِ أو لوثَةَ الشَّبَابِ الدَّائمِ، هيفاءُ! فحواءُ على ما فطرتُ عليه من حبِّ الغوايةِ أزلًا. ولا أعيبُ عليك خُلُقًا، أم سلوكًا شائنًا لا غفرانَ بعده. كما إنِّي لا أنسبُ إليك موتَ الشُّعورِ أم برودةَ المشاعرِ، فقد رأيتُكَ تألَمينَ لعليَّ يالُمُ. اختلستِ النَّظَرَ إليه كرتينِ. وألقيتِ على العنبتِ دمعَتينِ، ومن ثمَّ مضيتِ طوعَ غريزةً، تُطاردينِ سراً لا يُطال.

بكيتهِ لَمَّا رأيتُ فيه وطناً يُصلبُ كلَّ يومٍ من جديدٍ. يُفعلُ به ذلكَ منذُ عَقْدٍ أو يزيدٍ. وقد تكونينِ بكيتِهِ لَمَّا رأيتُ فيه زوجاً حملَ البندقيةَ وعن كرامةِ هذه الأرضِ يدوُدُ، أم أحياناً يدفعُ الخطرَ في مكانٍ ما عندَ الخُدودِ. ومن يعلمُ؟ قد تكونينِ أنتِ ذاتُكِ أرملةً شهيدٍ، أو أختُ شهيدٍ، أو الاثنينِ معاً. لكنَّكِ حتماً لستِ بأُمِّ شهيدٍ. فحواءُ التُّكلى لا تنفصمُ أبداً عن ضنَى قضى! أم تُراكِ فعلتِها، هيفاءُ؟

بل أعيبُ رجلاً ملَّ المُجادلةَ، وفي النَّهايةِ أثرَ السَّكينةِ وراحةِ البالِ فخصَّعَ. وافقَ طوعاً أم كرهاً، لكنَّهُ في النَّهايةِ من جنى عرقه كثيرٌ مالٍ دفعَ. أعيبُ أحياناً ناظرٍ، وافقَ أم خالفَ، لكنَّهُ عن المُبادرةِ امتنعَ. أعيبُ ابناً لكِ راشداً رأى الواقعةَ فهزَّ الرأسَ استنكاراً، لكنَّهُ مهانةَ الصَّمْتِ اجترعَ. أعيبُ رجلاً رأى بريقَ الذهبِ لَمَّا رآكَ، فهلَّلَ. وغرَّ طويلاً وكثيراً، وبفرحٍ عارٍ إليكِ استمعَ.

أعيبُ رجلاً أرادَ الشُّكْلَ وتعامى عن الدُّورِ. أرادكِ شاباً دائماً، ومُلهماً لغريزتهِ لا يشيبُ. أرادَ هيفاءَ فيكِ، أرادَ شيماءَ. أرادكِ غانيةً في سهرِ اللَّياليِ، راقصةً على مفرشِ الشَّهوةِ. أرادكِ الصُّورةَ وعن المعنى انشغلَ. أرادكِ لحينِ رغبةٍ، وبقيةِ العمرِ أهملَ. أرادَ منكِ الجسدَ شهوةً، والأمَّ معلِّمةَ الحياةِ عن غباءٍ وحُمقٍ منه أغفلَ.

أعيبُ رجلاً أرادَ الوقوعةَ بآخرٍ، فكننتِ أنتِ الدَّريئةَ. أرادَ سلبه ماله، عرقه، وخاصةً إرادتهِ، فكننتِ أنتِ الوسيلةَ. أرادَهُ وقوداً لحرابهِ وزيتاً لتناديلِ مجده، فابتدأَ بقلبكِ. أرادَهُ عسكرياً في جيشه وخدمياً في جنائزِ قصره، فتربَّصَ بغريزتكِ. علمَ أنَّ معرفتهِ لن تكونَ رابحةً أبداً بدونكِ. فهو لم يصلِ إلى عليٍّ بغيركِ سبيلاً صدقيني. اجتباكِ إليه بادناً فلَمَّا جَنَّاكَ، إلى عليٍّ وأخويه وصلَ.

كيفَ لا وأنتِ الأمُّ والأختُ والابنةُ والصَّاحبةُ، أنتِ عالمِ آدمِ الأثيرِ. أنتِ الحلمُ والحبُّ ومستودعُ الأسرارِ. أنتِ خزينُ النَّقاَةِ وموطنُ العقيدةِ، أنتِ الوطنُ. أنتِ الأثرُ الباقي لَمَّا يفنى البدنُ. أنتِ الرَّحْمُ والحضنُ، أنتِ الأصلُ في وجودنا نحنُ البشرِ. أنتِ المعلمُ الأوَّلُ والمؤسسُ والبناني، أنتِ الأثرُ. فالعظيمُ لم يعدم يوماً عظيمةً، ولَمَّا تُقصيه عن حلوِّ كرمِها حواءُ. وكذا هو حالُ الوضيعِ تَمَثُّلاً. ففي الدَّلةِ كما الرَّفعةِ، منهُنَّ القصدُ ومنهُنَّ الأفعالُ. فبصلاحكِ يصلُحُ النَّاسُ نتيجةً، وبفسادكِ تسوءُ جدًّا الأحوالُ.

لقد اجتمعَ كلُّ الرِّجالِ عليكِ، هيفاءُ! فكننتِ الهدفَ الجميلَ.. كنتِ الضَّحيَّةَ. حمامةٌ بيضاءُ، بل أنتِ أضلُّ سبيلاً. تتفصلينِ عن واقعٍ مريبٍ لا مثيلَ لُقبجه. تسلكينِ مسلكاً وعرّاً لا لزومَ له. تقحمينِ نفسكِ في خطرٍ صحِّيٍّ لا تفسيرَ له. تُقاسمينِ المضرورَ في النَّذرِ اليسيرِ ممَّا لا أملَ قريبٍ في ترميمِ خزينه. تستدعينِ الألمَ الجسديَّ وكأنَّ به أفولاً. ترمينِ الحُسنَ والجمالَ، ولكن هيهاتَ لمن تتبرجينِ هيفاءُ؟ هل بقي من يُناظرُ؟ فالرجلُ الذي تنتظرينِ في ساحاتِ الوعى قضى، وما تبقى هُمُ الأشباهُ.

المسكينةُ حواءُ! جعلوكِ النَّتيجهَ وكانوا هُمُ الفعلَ. جعلوكِ الصُّورةَ، وكانوا هُمُ الرِّيشةَ والألوانَ. جعلوا منكِ اللأمعنى، وكانوا هُمُ صنَّاعه. حلُمُوا بطروادةً فتحاً ونهباً، فكننتِ أنتِ المِفْتَاحَ. أرادُوا قهرَ الآلهةِ، فكننتِ أنتِ التُّفَاحَ. أرادُوا فوضى عارمةً وناراً، فكننتِ لها وقوداً وهواءً. أرادُوا جنةً على مقاسِ جُنونهمِ، فكننتِ فيها الأضلَّ حمامةً بيضاءً. حتَّى أنا لَمَّا رميتُهم جعلتُ منكِ بندقيةً. فهم جعلوكِ المتراسَ، وتلطَّوا خلفه نقيَّةً.

هو كذلك فعلَ الكلماتِ الغاضبةِ، يصطادُ رذاذها باكراً القريبَ الأقربَ. فيكونُ البعيدُ الأبعدُ صَيِّدَ المعانيِ المغَازيِ. مع ذلكَ أعترفُ حواءُ، فأنا وإياهمُ في فعلِ الخطيئةِ أضحينا سواءً. بلاءُ فعلُ أيدينا بلاءً، فقيحاً له من عظيمِ ابتلاءِ. فالطَّميُّ قد طغى، وعزَّ على شاربهِ العزاءِ. فهل من مُحْتَسِبٍ يتصدَّى؟ فيكونُ الجوابُ للخطبِ العظيمِ دواءً.

في سياقاتٍ أُخرى، أنصحُ بقراءةِ المقالاتِ التَّاليةِ:

- أذنيَّاتُ العصبونِ المُحرِّكِ العُلويِّ، الفيزيولوجيا المرضيَّةُ للأعراضِ والعلاماتِ السَّريريَّةِ
- Upper Motor Neuron Injuries, Pathophysiology of Symptomatology
- هل يفيدُ التَّدخُلُ الجراحيُّ الفوريُّ في أذنيَّاتِ النَّخاعِ الشُّوكيِّ وذيَلِ الفرسِ الرضِيَّةِ؟

- النقل العصبيّ، بين مفهوم قاصر وجديد حاضر
The Neural Conduction.. Personal View vs. International View
في النقل العصبيّ، موجات الضَّغط العاملة *Action Pressure Waves*
- في النقل العصبيّ، كمونات العمل *Action Potentials*
وظيفة كمونات العمل والتيارات الكهربية العاملة
- في النقل العصبيّ، التيارات الكهربية العاملة *Action Electrical Currents*
الأطوار الثلاثة للنقل العصبيّ
المستقبلات الحسية، عبقرية الخلق وجمال المخلوق
- النقل في المشابك العصبية *The Neural Conduction in the Synapses*
عقدة رانفييه، ضابطة الإيقاع *The Node of Ranvier, The Equalizer*
وظائف عقدة رانفييه *The Functions of Node of Ranvier*
وظائف عقدة رانفييه، الوظيفة الأولى في ضبط معايير الموجة العاملة
وظائف عقدة رانفييه، الوظيفة الثانية في ضبط مسار الموجة العاملة
وظائف عقدة رانفييه، الوظيفة الثالثة في توليد كمونات العمل
- في فقه الأعصاب، الألم أولاً *The Pain is First*
في فقه الأعصاب، الشكل.. الضرورة *The Philosophy of Form*
تخطيط الأعصاب الكهربائي، بين الحقيقي والموهوم
- الصدمة النخاعية (مفهوم جديد) *The Spinal Shock (Innovated Conception)*
أذيات النخاع الشوكي، الأعراض والعلامات السريرية، بحث في آليات الحدوث *The Spinal Injury, The Symptomatology*
- الرَّمع *Clonus*
اشتداد المنعكس الشوكي *Hyperactive Hyperreflexia*
اتساع باحة المنعكس الشوكي الاشتدادي *Extended Reflex Sector*
الاستجابة ثنائية الجانب للمنعكس الشوكي الاشتدادي *Bilateral Responses*
الاستجابة الحركية العديدة للمنعكس الشوكي *Multiple Responses*
- التنكس الفاليري، يهاجم المحاور العصبية الحركية للعصب المحيطي.. ويعف عن محاوره الحسية
Wallerian Degeneration, Attacks the Motor Axons of Injured Nerve and Conserves its Sensory Axons
التنكس الفاليري، رؤية جديدة *Wallerian Degeneration (Innovated View)*
التجدد العصبيّ، رؤية جديدة *Neural Regeneration (Innovated View)*
- المنعكسات الشوكية، المفاهيم القديمة *Spinal Reflexes, Ancient Conceptions*
المنعكسات الشوكية، تحديث المفاهيم *Spinal Reflexes, Innovated Conception*
خُلقت المرأة من ضلع الرجل، رائعة الإيحاء الفلسفيّ والمجاز العلميّ
المرأة تقرّر جنس ولدها، والرجل يدعي!
الرُّوح والنَّفْس.. عطية خالق وصنعة مخلوق
خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس.. في المرامي والدلالات
تفاحة آدم وضلع آدم، وجهان لصورة الإنسان.
- هؤلاء.. هذه
سفينة نوح، طوق نجاة لا معراج خلاص
المصباح الكهربائي، بين التجريد والتنفيذ رحلة ألف عام

- هكذا تكلم ابراهيم الخليل -
- فقه الحضارات، بين قوة الفكر وفكر القوة -
- العدو وعلته الاختلاف بين مطلقه وأرملة ذواتي عفاف  -
- تعدّد الزوجات وملك اليمين.. المنسوخ الأجل  -
- الثقب الأسود، وفرضيه النجم الساقط  -
- جسيم بار، مفتاح أحجية الخلق  -
- صبي أم بنت، الأم تُقرّر!  -
- القدم الهابطة، حالة سريرية  -
- خلق حواء من ضلع آدم، حقيقة أم أسطورة؟  -
- Obstetrical Brachial Plexus Palsy شلل الصّغيرة العضدية الولادي  -
- الأذيّات الرّضّية للأعصاب المحيطيّة (١) التّشريح الوصفيّ والوظيفي  -
- الأذيّات الرّضّية للأعصاب المحيطيّة (٢) تقييم الأذية العصبية  -
- الأذيّات الرّضّية للأعصاب المحيطيّة (٣) التّديب والإصلاح الجراحي  -
- الأذيّات الرّضّية للأعصاب المحيطيّة (٤) تصنيف الأذية العصبية  -
- Pronator Teres Muscle Arcade قوس العضلة الكاتبة المُدوّرة  -
- شبيه رباط Struthers-like Ligament  -
- عمليّات التّقل الوترية في تديب شلل العصب الكعبري Tendon Transfers for Radial Palsy  -
- Who Decides the Sex of Coming Baby? (Concise)  -
- من يُقرّر جنس الوليد (مختصر)  -
- ثالوث الذكاء.. زاد مسافر! الذكاء الفطري، الإنساني، والاصطناعي.. بحث في الصّفات والمآلات  -
- المعادلات الصّفريّة.. الحدائث، مالها وما عليها  -
- متلازمة العصب بين العظام الخلفي Posterior Interosseous Nerve Syndrome  -
- المنعكس الشوكي، فيزيولوجيا جديدة Spinal Reflex, Innovated Physiology  -
- المنعكس الشوكي الاشتدادي، في الفيزيولوجيا المرضية Hyperreflex, Innovated Pathophysiology  -
- المنعكس الشوكي الاشتدادي (١)، الفيزيولوجيا المرضية لقوة المنعكس Hyperreflexia, Pathophysiology of Hyperactive Hyperreflex  -
- المنعكس الشوكي الاشتدادي (٢)، الفيزيولوجيا المرضية للاستجابة ثنائية الجانب للمنعكس Hyperreflexia, Pathophysiology of Bilateral- Response Hyperreflex  -
- المنعكس الشوكي الاشتدادي (٣)، الفيزيولوجيا المرضية لانتساع ساحة العمل Hyperreflex, Pathophysiology of Extended Hyperreflex, Pathophysiology  -
- المنعكس الشوكي الاشتدادي (٤)، الفيزيولوجيا المرضية للمنعكس عديد الإستجابة الحركية Hyperreflexia, Pathophysiology of Multi-Response hyperreflex  -
- الرّمع (١)، الفرضية الأولى في الفيزيولوجيا المرضية  -
- الرّمع (٢)، الفرضية الثانية في الفيزيولوجيا المرضية  -
- خلق آدم وخلق حواء، ومن ضلعه كانت حواء Adam & Eve, Adam's Rib  -
- جسيم بار، الشاهد والبصيرة Barr Body, The Witness  -
- جدليّة المعنى واللامعنى  -
- التّديب الجراحي لليد المخليّة Surgical Treatment of Claw Hand (Brand Operation)  -

الانقسامُ الخلويُّ المتساوي الـ Mitosis
المُتمماتُ الغذائيَّةُ الـ Nutritional Supplements، هل هي حقاً مفيدةٌ لأجسامنا؟

الانقسامُ الخلويُّ المُنصفُ الـ Meiosis

فيتامين د Vitamin D، ضمانةُ الشَّبابِ الدَّائمِ

فيتامين ب6 Vitamin B6، قليلُهُ مفيدٌ.. وكثيرُهُ ضارٌّ جدًّا

والمهنةُ.. شهيدٌ، من قصصِ البطولةِ والفداءِ
الثَّقْبُ الأسودُ والنَّجْمُ الَّذِي هوى

خلقُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، فرضيَّةُ الكونِ السَّديميِّ المُتَّصلِ

الجواري الكُنُسُ الـ Circulating Sweepers



٢٠٢٠/١٠/١